أنطون تشيكوف

القصصيّ الروسي

ولد أنطون تشيكوف وهو من أعظم القصاص الروس عام ١٨٦٠ في مدينة تاجانروج Taganrog بجنوبي روسيا وبرغم انه نشأ في بيت لا يمت بصلة الى الطبقة العليا او المتوسطة اذ كان والده عبداً محرراً ووالدته ابنة تاجر ، فانه لم يتخلف في مضمار التعليم والتهذيب

ولم يكن أنطون تشيكوف سعيداً في حداثته ، اذ تضافر الفقر والقسوة الابوية عليه وقد صرّح مرة بأنه لم يكن حدثاً في يوم ما، لان حداثته كانت معذبة . التحق بكلتا المدرستين اليونانية والعالية في تاجانروج ، وتخرّج عام ١٨٧٩ في جامعة موسكو طالب طب . وفي هذه السنة نفسها ، ابتدأ تشيكوف يمد الصحف والمجلات الاسبوعية ومنها الفكاهية، بقصصه وتوادره . ونال عام ١٨٨٤ درجته الطبية ثم اشتغل حولاً من الزمان بالتطبيب فكان موفقاً، واستمرّ يتابع دراسة الطب حتى بعد ان اتخذ لنفسه مهنة الكتابة حرفة ، وأدى خدمة طبية جليلة حينما انتشر وباء الكوليرا عام ١٨٩٢ ، لم يرج منها جزاء ولا شكوراً

***

إن أعمال تشيكوف الخيرية الكثيرة التي أداها للمتألمين والمتضايقين لتفصح عن رقة قلبه وعظم اهتمامه . فقد أسس مدارس ريفية ، وصادق المعلمين التعساء، ووفر القوت لمرعى الجوع والقحط . وفي عام ١٨٩٠ ، زار مستعمرة العقوبات بجزيرة سخالين Saichalin لكي يدرس نظام اشتغال السجناء بفلاحة الارض ، تمهيداً لوضع كتاب في هذا الموضوع . ولما واتته الشهرة والثروة ، قضى أوقات فراغه في الفلاحة ، وفتح باب منزله على مصراعيه لاستقبال الناس على اختلاف حالاتهم، يلجأون اليه طالبين إرشاداً روحيّاً، وتحرراً من أمراضهم الجسدية . وبرغم انه أصيب قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً بالتدرن الرئوي ، فانه لم يدع حالته الصحية تمنعه من الكتابة او تؤخره عنها . واجابةً لرغبة طبيب، ترك تشيكوف سكنه في الشمال عام ١٨٩٨ ، ونزح الى القرم الدافئة ، وهناك بنى لنفسه منزلاً في يالتا Yalta وفيه بدأ كتابة مسرحيته الخالدة «حقل الكرز» The Cherry Orchard التي مثلت في اليوم

السابع عشر من يناير من العام التالي على مسرح موسكو الفني بحضور تشيكوف نفسه إذ أصرّ على مشاهدة العرض الأول رغم سوء حالته الصحية. وفي يونيو ١٩٠٤ صحب معه اولجا نيبر Olga Knipper ممثلة موسكو التي تزوجها قبل ثلاثة أعوام، صحبها إلى الغابة السوداء أملاً في التخلص من دائه، ولكن حالته ازدادت سوءاً فمات في يوليو التالي في قرية بادنويلر الصغيرة Badenweiler

وكان تشيكوف كغيره من الروسيين مكبّاً على دراسة نفسه وفحصها والتمعن فيها حتى ان كتاباته أصبحت تترجم عن حياته دون مراء وتظهر شخصيته وأخلاقه دون تزويق او طلاء. والصورة التي نستطيع استخلاصها من قصصه ومسرحياته ورسائله هي صورة شخص دعامته الحب، له صفات القديسين: لطيف، رؤوف، حساس، شجاع، حر الفكر، على استعداد لأن يقف موارده المالية ومعارفه الطبية دائماً على المحتاجين من جميع طبقات بني وطنه. وقد نجح تشيكوف باعتباره فردياً متطرفاً Strong Individualist في سلوك حياته على حسب رغبته ووفق ميله او كما وصفه القصصي الروسي ماكسيم جوركي: «في كل حياته عاش تشيكوف على نفسه، فقد كان دائماً كما هو، محرراً في دخيلته لا يبالي بما يرجوه منه الآخرون»

وكان تشيكوف أديباً منصفاً دقيقاً، وكانت له قدرة عظيمة على العمل، فبرهن برغم علله الجسدية على أنه كاتب خصب مثمر. وقد خلف، الى جانب مسرحياته نيفاً واربعمائة قصة قصيرة تكشف عن سعة معلوماته وتظهر كمال ملكته الادبية. وكانت كتابة الرواية novel النوع الوحيد من فنون الأدب، الذي لم يبرع فيه

وكثيراً ما اطلق على تشيكوف لقب «موباسان الروسي» وعلى الرغم من زعامة كل من موباسان وتشيكوف في كتابة القصة القصيرة فانهما لا يتفقان في أشياء كثيرة. فقصص موباسان القاتمة تتعارض مع جمهرة قصص تشيكوف وميله الى النزعة الانسانية، كما ان إحكام بناء قصص موباسان وسبك تركيبها يختلف عن قصص تشيكوف التي تقل عنها حبكاً وسبكاً

***

وفي عام ١٨٨٤ سخر تشيكوف قلمه أولاً لكتابة الدراما. فأنبى مسرحية «على الطريق المرتفع» On The High Road التي لم تطلع على عالم الادب بجديد، ولم تخلق ثورة في دنياه وبعد سنوات، في عام ١٨٩٦ قدم مسرحية The Sea Gull وهي تفوق سابقتها بمراحل، ومثلت في صنت بطرسبورج على عادة القوم في التمثيل، ولكنها لم تنجح، فغادر تشيكوف المسرح، وكان يشهد تمثيلها، معتقداً انه ليس بالكاتب المسرحي، وصمم على هجر هذا الفن إلى الأبد. ولم يتراجع عن عقيدته هذه ويرجع إلى صوابه إلا بعد أن أعيد

تمثيل The Sea-Gull في مسرح موسكو الفني عام ١٨٩٨ تحت إشراف المخرج العظيم ستانيسلافسكي Stanislavsky فسما بتمثيلها الى الذروة وأعاد الى تشيكوف ثقته بقواه، وحرّك فيه حماسته المسرحية السابقة التي كادت تخمد، ونفض الرماد فبدا الجمر المستعر، وتبدت الجذوة الملتهبة وثارت القوة الدفينة، فاستطاع في سبع سنوات أن ينصرف الى كتابة مسرحياته الخالدة التي نال بها الشهرة الطائرة والصيت الذائع.

وكان من حسن التوفيق أن تعاقد تشيكوف ومسرح موسكو الفني، فأصبح عميده المبدع في الانتاج الفني والكتابة المسرحية، واجتمع المسرح الى جودة التأليف، جماعة من خيرة الممثلين، استطاعوا بفضل مقدرتهم وحسن قيادتهم أن يخلقوا الجو الملائم، ويعبروا التعبير الصادق عما يتطلبه دور كل منهم، وأن يطمسوا كل غموض في مسرحيات تشيكوف ويجعلوها ذات مغزًى ومعنًى ومذاق.

ويحق لتشيكوف أن يدرج اسمه في عداد الطبيعيين، الاّ أن طبيعيته تغلب عليها النزعة الفردية، وهو قليل الاهتمام بالقشور من التعاليم، شديد العناية بالحقائق السامية الخفية التي كان كثيراً ما يسوقها في أسلوب رمزي دقيق.

وأدبه كله احساس، غني في روحانيته، ماكر في سياقه، عرضي في عرضه، حتى أنه يبدو في كثير من الأحيان بلا غرض أو مرمى. ولكن خاتمة مسرحياته تحمل على الاعتقاد بأن هذه العرضية أو الاتفاقية ظاهرية أكثر منها حقيقية، وان مسرحياته الجميلة تسير من بدايتها الى نهايتها وفق خطة ماهرة.

***

أما أشخاص مسرحيات تشيكوف، فهم يحيون وكلهم حياة ويقدمون أنفسهم الى النظارة أو القراء عما يقولون أكثر مما يفعلون. وأما الحوار المرن الطبيعي فهو محشو بعبارات التردد وألفاظ الشك، كثير التقطع والتكسر. ولم يهب تشيكوف الحياة لأشخاص مسرحياته وحسب، بل تعداها، الى بعثها في الاجسام المادية التي تدخل في المسرحيات، كالصقيع، وقوى الطبيعة، وحتى أثاث المنزل ورياشه، واستطاع كذلك أن يعجن جميع الأشياء الظاهرة والخفية، حنطة لطاحونته النفسية، وعجينة في يديه يشكلها كيف شاء.

ورغم أن تشيكوف لم يكن من عمد مدرسة «المسرحية المحبوكة» (١) يصعب علينا

---

(١) مدرسة المسرحية المحبوكة well-made play مدرسة فرنسية يتزعمها Dumas fils, Scribe, Sardou, Augier

انكار أن دراسته لمأساة الفرنسية أثرت تأثيراً ناجعاً في كتابته المسرحية ، وأنقذته من بعض القصور المعيب الذي يميل اليه الأدب الروسي . كما انه تعمد اهمال كثير من التدابير المرعية ، مثل المناظر الهندسية البارعة ، والخاتمات المختلقة ، والستائر المسدلة وابتدع نظاماً فريداً استطاع أن يجعله آلة يسخرها لتصوير مختلف المشاعر ، وتبيان شتى السجايا والنزعات ، وذلك ما أعاره تشيكوف جل عنايته واهتمامه .

***

وتغلب على كتابات تشيكوف نغمة كئيبة حزينة ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل البعض على الظن بأنه كان ينظر في الحياة نظرة تشاؤم وانقباض . ولكننا اذا علمنا ان هذا الأسلوب الكئيب Weltschmertz مثل صادق لما اتصف به الروس ، وكذلك لو أدركنا أن تشيكوف كان يعيش في عصر ركود قومي مثبط للهمم ، لأدركنا السر في هذه النغمة الحزينة التي تسم كتاباته . وكان طبيعيًّا جدًّا أن كاتباً حاد البصيرة حيّ الروح مثله ، يقدم صورة شوهاء لزمن مشوّه ، وقد صرح هو بنفسه أنه رأى من واجبه الادبي أن يقدم حقائق الحياة الأساسية ، مهما كانت خستها ، دون خوف أو محاباة أو تشويه ، فقال : « ليس الكاتب حلوانيًّا[1] ، أو مجمِّلاً ، أو مرفهاً أو نديماً مسليًّا . انه رجل مرتبط بعقد مع ضميره وشعوره الذاتي بواجبه ، ومتى وضع يده على المحراث وجب ألا يلتفت الى الخلف . وعليه ، مهما جابهه من مشاق ، أن يتغلب على الغثيان ، وأن لا يلوّث مخيلته بدنس الحياة . واجب الاديب أن يقول الصدق عن شخصياته وألا يحاول السموّ بأخلاقهم ، يجب ألا يكون لهم ديّاناً ، أو قاضياً عليهم » . ويجمل الاعتراف بأن تشيكوف كان عمليًّا ، وأنه كان مخلصاً لهذا المبدأ وفيًّا له .

***

ويعرض تشيكوف في معظم مسرحياته ، بؤس الأشراف الذين غدر بهم الزمان وتدهورت حالهم ، وهي الطبقات التي تدرك عجزها ووهنها ، والتي أصبحت الحياة لا تحمل لها أي معنًى أو مغزًى . ولا يسع الانسان إلاّ أن يعجب كيف يتشبث هؤلاء القوم المحطمو القلوب ، الضعفاء الارادة ، بالحياة ! فرغم إدراكهم أن الفرص تولّي الأدبار عنهم ، فانهم ما فتئوا يترددون ويعاطون ويسوّفون ، معللين نكبتهم « بالقضاء والقدر » وهو الاعتقاد

(١) الحلواني صانع الحلوى وبائعها .

الذي به يبرر الخامل خموله . والقوة الوحيدة التي عكسوها ، تظهر في مقدرتهم الفائقة على احتمال الآلم والصبر عليه ، وقد أجاد الناقد الروسي تومكيف Tomkeyeff تشخيص الأمراض التي يعانيها هؤلاء القوم حينما قال : « تعاني جميع الشخصيات التي ابتدعها تشيكوف شلل الارادة ، والفساد في الطبيعة وعدم ضبط النفس ، وهم على استعداد للانتحار ، أو لطلب العزاء والسلوى في كؤوس الراح في كل مرة تطلب الحياة منهم شيئاً معيناً . وهم لا يطمحون الى مثل عليا عملية ، ولا يستطيعون تأدية عمل . أما العمل الوحيد الذي يملكون انجازه ، فهو نسيج هشّ من الأحلام » .

***

وجميلٌ بنا أن نسجل هنا أن كآبة مسرحيات تشيكوف يتخللها بصيص من المرح ، وأن بعض الفقرات المبشرة في مسرحياته ، تحمل على الاعتقاد بأن تشيكوف كان متفائلاً أصلاً ، وانه يؤمن ايماناً غير محدود بالتقدم البشريّ ، وأنه يؤمل تحقيق سعادة العالم في المستقبل .

ويشترك تشيكوف مع كارليل في صفة واحدة على الاقل ، وهي أنه علق شأناً كبيراً على « العمل » ، وعدّه الترياق لكل داء عضال فتاك ببني وطنه . وقد تبدّى هذا الزعم على لسان بعض أشخاص رواياته ، فهم يمجّدون العمل ، ويرون فيه أعظم ضمان وأوكده لتحقيق سعادة الأجيال القادمة . وقد قال بهذه النظرية طوسنباخ Tusebach في رواية تشيكوف المسماة « الشقيقات الثلاث » The Three Sisters إذ قال متنبئاً : « الوقت قريب ، والسيل ينهمر صوبنا والعاصفة الهوجاء مقبلة ، وهي قريبة منا ، وسوف تزيل من المجتمع التراخي وعدم المبالاة ، وبغض العمل ، والكسل والملل ، سأعمل ! وبعد خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين ، سيعمل الجميع على العمل » . وقد تحقق هذا الرأي برمته في القرن العشرين وفي نظام روسيا السوفيتية .

وظاهرٌ أن غرض تشيكوف من كتاباته هو أن يبين أن الشقاء ليس إلا فترة انتقال يجب احتمالها بالصبر للتكفير عن الأخطاء الماضية ، والاستعداد للأيام السعيدة المقبلة (1) .

وديع فلسطين

(١) عولنا في كتابة هذا المقال على كتاب Representative Modern Dramas, by C. H. Whitman